تقرير أولي عن موسم الحفريات الاول
في قصر الحير الشرقي

(القسم الثاني)

بقلم : اليغ غرابار

ترجمة وتلخيص : خالد الاسعد

كانت غايتنا في القصر الكبير ، وهي استخلاص دلائل كافية لوضع مخطط أوضح لما يسمى (بالجامع) وفادنا الكشف عن جداره الشمالي للعثور على مجموعة محيرة ، استدعت التوسع وأظهرت اكتشافات أساسية . وان الاستنتاجات المستخلصة منها تحتاج إلى دراسة عميقة وشاملة لأهميتها في تأريخ المنطقة . وسنصف المعطيات التي زودتنا بها الحفريات حول الحالة الأصلية للأبنية في الموقع ونناقش طبقاتها ، ونفسر تاريخ ومعنى الوثائق المكتشفة .

أولا الأبنية الأصلية :

١ — الجامع : إن هدفنا هو اكتشاف مستوى أرضيته ، وامتداده نحو الغرب وبعض عناصره الداخلية . وقد أثبتت الحفريات إلى حد بعيد ، ماقاله (كريزويل) عنه قبل ثلاثين سنة لقد كشفنا جميع عضائده ، وقاعدة العمود الاول من الرواق الغربي ، والجدار الغربي الموازي للجامع ، ويبدو أن العضائد ملاصقة للجدار الخارجي فقط وليست مرتبطة به ، وهذه النقطة سيكون لها أهمية في تفسير تاريخ هذا الموقع .

للمسجد باب على الرواق الغربي ، كما أن أرض الحرم والأروقة كانت مرصوفة بالبلوكاج والقصرمل والجص .

واستطعنا تحديد موقع المحراب في منتصف الجدار الجنوبي ، كما دلنا سبر أمام الباب الشرقي على موقع الرواق الشرقي ، وكشف عن ساقية تمتد باتجاه منتصف الباحة ويتفرع منها رافد صغير ، وقادتنا الحفريات للكشف عن جميع أعمدة الرواقين الغربي والشمالي والباب الثاني للمسجد من الرواق الغربي . ونستطيع أخذ صورة واضحة لمسجد له باحة أبعادها ١٠ × ٢٨ م ذات رواق معمد . أرضه بسيطة صلبة تتنوع بين قسميه المسقوف والمكشوف . لم نستطع معرفة ماهية سقف الرواق فقد يكون من الخشب كما افترض (كريزويل) عن سقف الحرم ، أو من القرميد لوجود بقايا منه قرب الباب الشرقي . وتبرز أمامنا ثلاث نقاط مشكلة :

الأولى : تتعلق بأبواب الجامع : فقد عرفنا منها حتى الآن ثلاثة . وكنا نرجح وجوب باب رابع في الجدار الشمالي ، ولكن تأكد لنا الآن عدم وجوده . ويعود ذلك إلى شكل المدينة المحيطة بالجامع .

الثانية : الإشارة إلى قنوات المياه فيه ، فقد ذكرنا القناة الأولى أمام الباب الشرقي ، وعثرنا على القناة الثانية الممتدة عبر الباب الغربي ـ الشمالي من الرواق وتنعطف نحو صحن الجامع وهي مبنية بحجارة منحوتة وأرضها مفروشة بلوحات من القرميد المشوي . ويستخلص من هذه الأقنية الأهمية الكبرى المكرسة لنقل المياه إلى قصر الحير . ويلاحظ أن محاور الأقنية لاعلاقة لها بالمخطط الأصلي للجامع ، وهذه النقطة ـ غير مؤكدة ـ ولكنها تضيف عنصراً غريباً حول شخصية المدينة والجامع .

الثالثة : مسألة تأريخ الجامع ، فقد كان يظن فيما مضى أنه أموي ، ويبدو هذا الظن أقل تأكيداً الآن . وقبل مناقشة هذه النقطة نورد ملاحظتين : الأولى : دلتنا الأسبار التي حفرناها في المسجد ورواقه على عدم ظهور سكنى سابقة قبله . الثانية : أن عثورنا على قطع رخامية محطمة لايبرر الادعاء بأن أجزاء من الجامع كانت مكسوة بالرخام ، كما أن العثور على كسر ملونة لاتسمح لنا بافتراض وجود الفسيفساء .

أما القول بأنه أموي فيعتمد على مانعلمه عن بناء أموي في قصر الحير ، ثم الافتراض بأن أسوار القصر الكبير معاصرة لأسوار القصر الصغير الأموية ، وبناء عضائد بينها حجارة أعيد استعمالها على بعضها كتابة تدمرية ، المخطط وجزء من الجامع يتفق أسلوبها وأسلوب الربازة الأموية المعروفة في أماكن أخرى من سورية ، وعدم وجود مئذنه . أما القول بأنه غير أموي فيعتمد على : أن الكتابة الأموية التي اكتشفها روسو على إحدى عضائد الجامع ، فلا بد أن تكون قد أعيد استعمالها ، إذ ليس معقولاً أن توضع كتابة رسمية تؤرخ لمدينة على عضادة ثانوية في المسجد ان المحراب وعموديه من خواص القرون الحادي عشر حتى الثالث عشر للميلاد ثم علاقة الجامع بالمحلات الصناعية التي ليس لها مشابه أموي وتعود الى عصور متأخرة . وإزاء هذين الافتراضين — أموي أو متأخر — فنحن أقرب الى الافتراض الأخير . (رغم صعوبة ذلك) نتيجة وجود الكتابة الأموية ، وخواص الاقبية والأبواب داخل الجامع مما يشير إلى أن البناء قد تم بعد أن سكن الموقع لمدة طويلة ، قد تكون هذه المدة هي الفترة الأموية المذكورة في النص .

ثانيـاً : المؤسسة الصناعية : قادنا الكشف عن الجدار الغربي للجامع الى مسافة أطول حتى نقطة التقائه بالشارع الرئيسي ، وقد كشفت أجزاء من أربع غرف تمتد من الجنوب الى الشمال . عثرنا في الغرفتين الثانية والثالثة على معصرتين وخابيتين من الفخار تصلهما قناة صغيرة بإحدى المعصرتين ويليهما حوض لجمع المادة المعصورة . وإن الرماد الذي يملأ الخوابي يدل على أن هذا الموقع قد أحرق بشكل مقصود بعد تخريبه .

ومن السابق لأوانه استخلاص نتائج محددة ، ولكن هناك نقاط هامة تساعد في إلقاء أضواء على هذه المنطقة بشكل عام .

أولها : وجود مجموعة هندسية تملأ زاوية كاملة في القصر الكبير يفصلها عن باقي المدينة بما دعوناه الجدار الغربي ، ويضم الجامع والمنشآت الصناعية والتجارية والمعاصر . وعلى الرغم من عدم وجود مايشبه هذه المجموعة الحضرية على حد ما نعلم ، فان العلاقة بين مؤسسة دينية ومنشأة صناعية أو تجارية لا يتناقض مع الشخصية التقليدية لمدينة إسلامية ، إذ أخذت هذه

العلاقة الصفة الرسمية في العصور المتأخرة بنظام الوقف الذي اهتم بتحصيل الرسوم من المنشآت لصرفها على الأبنية الدينية . فعندما أسست الكوفة أمر الخليفة عمر أن تبنى الأسواق على نفقة الجوامع ، وبقيت هذه العلاقة الوثيقة صفة تطبع المجتمعات الحضرية في الشرق الأدنى كله .

ثانيها : ما يتعلق بخواص المؤسسة الصناعية وصعوبة تصورنا كيفية الدخول إليهـا . إذ ان التنقيبات غير تامة ، ولم نجد غير ممر يؤدي الى الغرفة رقم (١) ولا يتصل بغرف المؤسسة الصناعية الأخرى .

ثالثها : معنى وجود المعاصر ، فمشكلة وجودها ذات شقين :

١ً – يجب التقرير فيما إذا كانت هناك مؤسسة واحدة أو مؤسستين . وهل كانت إحدى المعصرتين تستخدم للعصر الأولي والتنظيف ، وتستخدم الثانية مع الخوابي والحوض كآخر مرحلة في عملية استخراج العصير ؟ فإذا قلنا بأنهـا مؤسسة واحدة فلا بد أنها كانت واسعة تتعدى بانتاجها احتياجات التموين المحلي .

٢ً – تحديد نوع الثمرة المعصورة . من الواضح أنها كانت من الخضراوات لعدم وجود أجهزة للتسخين . ولا بد أيضاً من استبعاد فكرة صنع الصابون . ونحتاج الى مزيد من التحليل الكيماوي لمعرفة نوع الثمرة وهل كانت من الزيتون أو البطم . ولهذا الاكتشاف أهمية خاصة بدلالته على صناعة الصحراء السورية في الشرق الأوسط . وهذه الصناعة التحويلية تتطلب وجود مزارع نامية ، مما يفسر لنا المغزى من وجود الأفنية العديدة المحيطة بقصر الحير الشرقي .

ثالثاً : تسلسل الطبقات واللقى : إن طبقات القصر الكبير أبسط منها في القصر الصغير . فثمة مخطط هندسي هام عاش مدة طويلة عفى عليه الزمان . وان هجر هذه المنطقة كان مقصوداً رافقه تجريد منظم للجدران والا كيف يمكن تفسير بقاء جميع الجدران المكتشفة بمستوى المدماك الأول ، وتحطيم حجر المعصرة الضخمة ورميها في الحوض ووجود مجموعة محطمة من الجرار في مكان واحد ؟ وهذا لا يعني أن هجر المنطقة كان نهاية استخدام البناء ، لأن البناء طرأ عليه تبديل ظاهر بتشييد جدران تقسم المنطقة تقسيماً جديداً لهدف غير معروف .

كما أن الجامع قد أبطل استخدامه لأننا وجدنا أن محرابه بالذات قد تحول الى مدخنة (موقد) تعلو فوق أرضه الأصلية ببضع سنتمترات .

معظم اللقى من العناصر الهندسية والقرميدية والأعمدة والتيجان المهشمة وقطعة حجرية عليها صليب . وبعض الكسر الزجاجية ومجموعة من الكسر الفخارية والخزفية قيد الدراسة ، ويمكن تأريخ بعضها بالقرنين الثاني عشر والثالث عشر وبذلك يمكننا القول : إن آخر هجرة منه توافق فترة الغزو المغولي ونتائجه المدمرة إذ أصبحت المنطقة منذ ذلك الحين قفراً يباباً .

أعمال المسح :

قامت البعثة بالإضافة للتنقيب بمسح تفصيلي وكامل لكل الأطلال المكشوفة في القصرين ، لتحديد أبعادهما وأجزاء الوحدات الباقية والمتوقعة . ورسم وقياس كل البقايا المنظورة وأشكالها الهندسية كالمداخل والواجهات . وأظهر المهندسون وجود جدارين يغلقان الساحة ما بين القصرين لجعلهما قصراً واحدا . وقد عثرنا صدفة في الجدار الجنوبي على محراب بسيط يحده عمودان أعيد استعمالهما ، وقد كسيت أرضه بالجص . وهذا يضع حلا لوجود البرج الواقع بين القصرين ، فما هو إلا مئذنة لبناء ديني متأخر ، وليس مستبعداً استخدامه برجاً للمراقبة قبل ذلك .

استنتاجات :

من السابق لأوانه استخلاص نتائج محددة عن قصر الحير الشرقي وأهميته بالنسبة لتاريخ سورية الأثري ، ولكن معطيات الموسم الأول زودتنا بوثائق معينة ، وأثارت بعض القضايا التي تسمح بوضع عدة فرضيات تحدد لنـــا مجال التنقيبات القادمة في قصر الحير نفسه . وتسلط الأضواء على زوايا جديدة وهامة من تاريخ سورية في العصور الوسطى ، وتسمح لحزم من النور أن تمر عبر النوافذ المظلمة ، وتجلو بعض جوانبها . وتتيح لنا تحديد فترات السكنى المتعاقبة في هذا القصر وهي :

١ ــ التدمرية : عرفت من الأحجار المعاد استعمالها في الجامع .

٢ ــ المسيحية : عرفت من حجرتين عليهما صليبان .

٣ ــ الأموية : يحددها فترة البناء الأولى في القصر الصغير وكتابة الجامع في القصر الكبير .

٤ — العباسية : (القرن التاسع) ويقابلها الفترة الثانية من أبنية القصر الصغير ، والمعروفة في القصر الكبير .

٥ — القرن الحادي عشر : (تاريخ فرضي) يعاصرها المستوى الثالث في القصر الصغير ، وقد ينسب اليها الجامع والمؤسسة الصناعية في القصر الكبير .

٦ — القرنين الثاني والثالث عشر : يحددها المستوى الرابع في القصر الصغير ، وزمن هجر المؤسسة الصناعية في القصر الكبير .

٧ — فترات لاحقة : ربما ينسب اليها المحراب وجدران ما بين القصرين وجعلهما قصراً واحداً .

٨ — الفترة المعاصرة .

وبينما تدعم هذه التقسيمات بأدلة أثرية ، فان تتابعها ذو أهمية بعيدة ، وان أثرها يصعب تحديد مداه . فالكتابة التي شاهدها روسو وواجهة القصر الصغير تشيران الى أن أهم فتراته كانت الفترة الأموية . واننا لنعتقد بأنه أنشي ليكون قصراً ، أما تاريخ المدينة فلا يزال لغزاً محيراً ، ووجود لقى تدمرية ومسيحية يجعلنا نعتقد حدوث استيطانات سابقة ، بدأ حولها البناء الأموي ، فتطوير وتنظيم مصدر دائم المياه واقامة فعاليات زراعية كان في فترة ما قبل الإسلام وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار الأدلة المشاهدة في قصر الحير الغربي أو في خربة المفجر أو الفرضيات الموضوعة عن فترة ما قبل الاسلام ، فتجب ملاحظة ان هذه النقطة بالذات لم تثبت أثرياً بعد .

ان الفترة المحيرة هي التاريخ المتأخر للقصر ، فلم يسكن من القرن التاسع حتى الثالث عشر فحسب بل مر بتطورات جديدة ، فاذا ما أثبتت التنقيبات القادمة صحة استنتاجاتنا هذه ، فلا بد أنه قد اضيف حي جديد في المدينة خلال القرن الحادي عشر (وربما معظم المدينة) يضم جامعاً كبيراً يلحق به المؤسسة الصناعية ، ويمكن أيضاً الاستنتاج بأن أسوار القصر الكبير تعاصر الجامع ، وتكون بذلك متأخرة عن القصر الصغير ، وما التشابه الجزئي بين

أسوار القصرين الا تقليد مقصود للأول . وعندما أصبح القصر الكبير على هذه الحالة البنائية (حسبما نعتقد) أصبح القصر الصغير ملحقاً به ، وان فقدان القصر الصغير لأهميته ، في نفس الفترة التي ازدادت فيه أهمية القصر الكبير ، قد يساعدنا في توضيح سبب عدم وجود أي علاقة انشائية بينهما ، ويفسر لماذا نجد أهم مدخل للقصر الكبير يتجه نحو الشمال وليس إلى الشرق .

ونتيجة لما تقدم ، فمن السابق لأوانه الاستنتاج بالضرورة ، بأن القصر الكبير بناء متأخر ، لأن مميزات موقع الجامع والمداخل والأقنية تشير إلى أن المؤسسة الصناعية المنقبة جزئياً ، لها ارتباط بوحدة أخرى إلى الغرب منها ، ونأمل أن نجد حلولها هنا وفي التلال الواقعة إلى الشمال من القصرين . فبعد أن عاش كل من القصرين دوراً يختلف عن جاره ، توحداً بإقامة جدارين بينهما . وباضافة جامع قد لا يكون أكثر من مكان للخطابة بني على أنقاض الجامع الأول وهذه هي الفترة التي أصبح فيها هذا الموقع مجرد خان للقوافل .

يبدو هذا التقسيم التاريخي للموقع صحيحاً من نتائج تنقيباتنا عام ١٩٦٤ ، ونشاط السيد ج . تشالنكو G. Tchalenco في أعماله في قرى شمال سورية ، ونلقي معاً أضواء على مشكلة (المدن البائدة) في سورية . لأننا نشاهد منشاة هندسية هامة تعتمد على نظام رائع لمصادر المياه في هذا الموقع ذي المياه الموسمية .

وليس معقولاً أن يكون هذا البناء الضخم مجرد حصن على الحدود ، و (خلوة غرام) لأمير أموي لأنه عاش قروناً عديدة ، لقد لعب قصر الحير الشرقي دوراً هاماً في تاريخ سورية الوسيطة كباقي مدنها وقراها ، بأرضها الخصبة المعطاءة ، وطرقها التجارية العالمية ، ومراكزها الهامة . ونأمل أن تساعدنا التنقيبات المقبلة على تحديد هويته ودوره ، مع أن عملنا لهذا الموسم سمح لنا بالتعرف على أشياء مجهولة عن الصحراء السورية خلال العصور الإسلامية الوسيطة ، ومعرفة نماذج عن نشاطات هذا الموقع كوحدة حية فعالة . وان وقوعه على الطريق ما بين تدمر — الرصافة يجعل التجارة احدى هذه الفعاليات الهامة ، ويوضح استمراره لقرون عديدة ويفسر أهمية مدخله الشمالي .

وان اكتشاف المعاصر بتركيبها المعقد المتقن ، يوحي لنا بوجود صناعة تحويلية لثمرة ما على نطاق أوسع من احتياجات محلية ، ويدعو للقول بأن الزراعة كانت سبباً من أسباب وجود القصر ، ويمكن أن نستدرك فنقول بأن الغرض الزراعي القائم على نظام دقيق للمياه قد بدأ في العهد التدمري واستمر حتى القرن الثالث عشر ، بالرغم من امكانية القول أيضاً : بأن الغرض الزراعي تبلور بعد أن اختير هذا الموقع لمقاصد تجارية أو ستراتيجية .

أخيراً : ان الجدار الغربي والجامع والمؤسسة الصناعية تشكل حياً واضح المعالم ، يوحي بوجود مدينة حقيقية . فهنا دليل كما هو معروف عن المميزات الرئيسية للحضارة الاسلامية بوجه عام ، ونعني : النظام الحضري . فقد درس تنظيم المدن الاسلامية في العصر الوسيط ولكن بشكل (نظري وجزئي) كدراسات سوفاجيه Sauvaget في حلب ، أو ما كتبه عن دمشق كل من : (محمد كرد علي ، وصلاح الدين المنجد وبعض أعضاء المعهد الفرنسي بدمشق) بسبب التاريخ المعقد لهذه المدن قبل وبعد العصور الوسطى .

ونعترف اننا قد نكون هنا أمام «مدينة اسلامية كاملة» ، ذات صفات خاصة توقف نموها في العصور الوسطى بالذات . وعليه يمكننا تزويد المؤرخين وعلماء الآثار والباحثين عن المراكز الحضرية بما نعرفه عن مدينة كاملة يمكنهم مشاهدة معالمها ومساكنها .

ونترك للمستقبل تحقيق آمالنا وأمانينا . وانه لمن الأسرار الغامضة لعلم الآثار ألا نتمكن من الاجابة عن التساؤلات قبل نهاية العمل .

ان طرح هذه التساؤلات يدل على الغنى الكامن في المعلومات بين اطلال قصر الحير الشرقي . ويذكي صفحات من تاريخ سورية الأثري ، ويحل مشكلات ذات أهمية بالنسبة للحضارة الاسلامية ، ولمدنية الصحراء السورية بشكل عام .